

- ١ -

تمهيد

عندما وقعت هزيمة ٥ يونيو سنة ١٩٦٧م، وحدث الذهول الذي زلزل كبرياء الأمة، وهز ثقتها بنفسها.. كانت الهزيمة النفسية هي أخطر التحديات التي اقتحمت العقول والقلوب، والتي هددت بقايا آمال القيام من الكبوة، وإقالة العثرة، والأخذ بأسباب إعادة البناء، والسير على طريق القتال لتحرير الأرض، واسترداد الكرامة، وكسر شوكة الغرور الصهيوني الذي بلغ - بالمبالغة - عنان السماء!..

ومن الأصوات التي ارتفعت يومئذ، لا لتفسير الهزيمة، وإنما لتبريرها - مع حسن النوايا - أصوات مثقفين لهم وزنهم وثقلهم واحترامهم في ساحة الأدب والفن.. ومنهم المرحوم توفيق الحكيم [١٣٢٠ - ١٤٠٨هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٨٧م]، والمرحوم الدكتور حسين فوزي [١٣١٨ - ١٤٠٩هـ/ ١٩٠٠ - ١٩٨٨م]، اللذان زعما - في التفسير التبريري للهزيمة - أن أمتنا صانعة للحضارة، لكنها ليست بارعة في القتال!!..

وأذكر أنني عندما قرأت هذا «الكلام» أحسست أننا أمام «كارثة»

جديدة، يمكن أن تؤدي إلى تكريس هزيمة يونيو.. بل ويمكن أن تفضي إلى هزيمتنا في ميدان «صناعة الحضارة» ذاتها.. ذلك أنه لا بقاء لصناعة-أية صناعة -إذا لم يبرع صناعتها في إقامة القوة الضاربة التي تحميها من غائلة العدوان..

ولقد استفزتني هذه «المقولة» - يومئذ - فدفعنتني إلى استدعاء تاريخ الصراع الطويل، والتحديات التاريخية، التي فرضها الغرب «الصلبي» - الاستعماري» على أمتنا العربية وشرقنا الإسلامي.. من الحروب الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ - ١٢٩١ م] وحتى حملة بونايرت [١٧٦٩ - ١٨٢١ م] التي جاءت إلى بلادنا في مطلع عصرنا الحديث [١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م] لتواصل حلقات هذا الصراع وهذه التحديات..

ولقد ذهبْتُ لاستدعاء ذلك التاريخ؛ كي تقدم حقائقه وسننه وقوانين معاركه الرد على هذه «المقولة» الخطرة، ولتثبت هذه المعارك أن أمتنا قد احترفت الجهاد القتالي دفاعاً عن ديار الإسلام، كما أبدعت في الجهاد الحضاري.. وأن الأمة - من العلماء إلى العامة - كانت حاضرة في ساحات القتال، قبل ومع الأمراء والجند والسلاطين..

ولقد كانت حصيلة هذا الجهد الفكري الذي أنجزته يومئذ هي فصول كتابي «معارك العرب ضد الغزاة».. والذي استدعى السنن والقوانين والوقائع والحقائق والدروس والعبر والعظات التي تمثلت في معارك: القادسية [١٥ هـ / ٦٣٦ م]، وخطين [٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م]، والقدس [٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م]، ودمياط [٦١٥ هـ / ١٢١٨ م]، والمنصورة [٦٤٨ هـ /

١٢٥٠م]، وعين جالوت [١٢٦٠هـ / ١٢٦٠م]، والحملة الفرنسية
[١٢١٣هـ / ١٧٩٨م]، ورشيد [١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م]، وفتح عكا
[١٢٤٧هـ / ١٨٣٢م]...

ولقد شهد الاستقبال الذي استقبل به هذا الجهد - منذ نشر فصوله
متفرقة.. وحتى الطبعات الخمس التي توالى لهذا الكتاب - على أن هذا
الاستدعاء للتاريخ إنما كان «موقفاً معاصراً» يدفع خطر الهزيمة النفسية التي
فتحت لها هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧م أوسع الأبواب..

* * *

وإذا كانت «القراءة المجردة» للتاريخ، لا تفضي - بالضرورة - إلى
«الاستدعاء المعاصر» لهذا التاريخ.. بل ربما قادت إلى «الهجرة من العصر»
إلى التاريخ!.. فإن المطلوب - للاستدعاء المعاصر للتاريخ، كي يخدم
قضايانا المعاصرة، ويغيب عن علامات استفهام واقعنا المعيش - ويشير إلى
حلول ومخارج لمشكلاتنا ومآزقنا الحالية.. المطلوب - لبلوغ هذه المقاصد
والغايات - تجاوز «القراءة المجردة» للتاريخ، إلى «الوعي» بسنن وقوانين هذا
التاريخ.. ذلك أن التاريخ لا يعيد نفسه - حتى تكفي قراءته - وإنما الذي
يمكن استعادته منه هي الدلالات والسنن والقوانين والدروس والعبير
والعظات المستخلصة من القوانين الحاكمة لسير هذا التاريخ.

* * *